ج - قوى الصراع المحلية

وهي شديدة الوضوح في الرواية: صراع الفلاحين مع الشيخ فرنسيس، وصراع الشيخ مع أنسبائه مشايخ الجرد، ومع ابنه رعد، ومع الأمير بشير الشهابي، ومع الحكم المصري، ومع البطريرك الماروني، ثم انفجار الصراع في نهاية الرواية ما بين الموارنة والدروز بسبب الموقف المتردد لطانيوس في اتخاذ قرار بمعاقبة المتعاونين مع الحكم المصري، الذين تسبّبوا بقتل الشيخ الدرزي.. وهو ما قاد إلى الثأر الطائفي المستمرّ في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر في ظلّ غياب دولة مركزية وقوية وعادلة.

وفي الرواية إشارات كثيرة وواضحة إلى الشرائح الاجتماعية في جبل لبنان آنذاك وهي: الفلاحون، الإقطاعيون، بورجوازية الحرير، رجال الدين، المثقفون، رجال العصابات...

ولا يجد الباحث صعوبة في فهم تلك الإشارات ودلالاتها الاجتماعية والطبقية كما يقدّمها أمين معلوف الذي يتّخذ موقفاً بالغ الوضوح من رموزها. فروكز تعبير عن طبقة بورجوازية هجينة ولدت من السرقات واستغلال النفوذ لدى الإقطاعيين، وارتبطت بشكل تبعي بالخارج عبر تجارة الحرير، وامنت بالتغيير الشكلي في البُنَى الاقتصادية والاجتماعية مع ميل نحو المساومة والتحالف الطبقي مع بقايا الإقطاعيين. أما نادر البغّال (الأصح المكاري) فهو مثقّف غير واضح المعالم، يتمتع بإيجابيات كثيرة منها جمع الكتب والمخطوطات، ويتقن عدّة لغات، وعلى علاقة طوباوية بأفكار الثورة الفرنسية، ويحلم بولادة جيل من المثقفين اللبنانيين القادرين على التغيير الجذري؛ إنه رمز لشريحة اجتماعية من المثقفين المهمشين الذين يتقنون فن الكلام أكثر مما يتقنون فن التنظيم والعمل النهضوي.

بقي أن نشير إلى طانيوس، بطل الرواية، الذي يعتبره المؤلّف رمزاً لطبقة ولدت مشوّهة من زواج غير شرعي بين الإقطاع وعامة الشعب. فهو منبوذ بين زملائه منذ صغره، وقد تسبّب في نزاع داخل العائلة الإقطاعية المسيطرة، وفي نزاع مع البطريرك الماروني بسبب انتسابه إلى مدرسة القس الإنكليزي، وفي نزاع مع روكز البورجوازي الذي رحّب به في البداية ثم رفض تزويجه ابنته على أمل أن يَعْقُد المصاهرة مع ابن الإقطاعي، فأسفر النزاع عن مقتل البطريرك نفسه. وعندما تسلّم طانيوس الحكم لأيام معدودة في القرية عجز عن اتخاذ موقف يمنع انفجار الحرب الطائفية فاختار طوعاً طريق الهجرة إلى الخارج وتحوّل إلى رمز لطبقة هجينة، غير واضحة المعالم، يشدّها حنين دائم إلى الهجرة.

ان قراءة متأنية لهذه الجوانب الأساسية من الفكر التاريخي في **صخرة طانيوس** تؤكّد بالملموس كيف أن الروائي أمين معلوف قد انحاز بوضوح تام إلى رمز الطبقة الإقطاعية، الشيخ فرنسيس، على الرغم من السلبيات الكثيرة التي نعته بها. فهو زعيم حقيقي، يعيش آلام الناس ومشاكلهم، ويدفع الثمن غالياً بسبب مواقفه. كان يحلم أن يكون وريثه الشرعي متنوراً حتى يتمّ انتقال السلطة إليه بشكل طبيعي. لكن ابنه الشرعي تمسك بالذهنية الإقطاعية ولم ينفتح على ثقافة العصر. ومع ذلك، فالممارسات التي قام بها روكز، كممثّل لبورجوازية الحرير، جعلت الناس يلتفون مجدّداً حول شيخهم القديم ذي التقاليد المتوازنة، بإيجابياتها وسلبياتها. كما أنّ الحفاوة البالغة التي استقبل بها طانيوس من قِبَل أبناء قريته لم تكن في محلّها. فقد كان ضعيف الشخصية، مشتّت الذهن، يميل إلى الهروب من مواجهة الأزمة المستفحلة على غرار ما تقوم به الدولة اللبنانية، منذ نشأتها، في الدوران حول الأزمات وإبقائها دون حلّ فتنفجر بشكل أكثر دموية.

***

في الختام يمكن القول... إنّ **صخرة طانيوس** هي مزيج إبداعي بين التاريخ والرواية، بين أحداث التاريخ وعبرها، بين الماضي والحاضر، بين القدرة على التوثيق العلمي الدقيق والتخيل والإبداع، بين النصّ المكتوب والنصّ المضمر، بين حضور المؤرّخ في الفرضيات والاستنتاجات العلميّة وحضور الراوي في تفاصيل الوصف الروائي، بين تكثيف الايديولوجيا في النصّ التاريخي وكشف الزيف الايديولوجي الكامن في الممارسة السياسية. لقد منحنا أمين معلوف في **صخرة طانيوس** لذّة امتلاك معرفة تاريخية معمّقة عبر التكثيف النظري لرموز القوى الاجتماعية السائدة في جبل لبنان آنذاك، وكسر حاجز الزمن بين الماضي والحاضر بحيث يستطيع القارئ امتلاك معرفة علمية عن الرموز السياسية المسيطرة على لبنان اليوم، وإظهار عجزها عن بناء لبنان الغد فيستمر سيل الهجرة إلى الخارج ويستمر معه حنين العودة إلى الصخرة - الجبل - الوطن.

يموت لآخر أرض

غالية خوجة

وشموساً تغتصبين،
- أراها -
ويحاصرها.. سَهَرٌ قَتّالٌ في وجهي
وكذا قلبي..
فاحترزي.. من كونكِ طاغيتي
فَهَلاكي يسبح في عينيكِ
وفي عنقي..
أتقلّد شعركِ وَشْماً
وأُعلّقُ أوّلَ حرفٍ
من صاعقتي
أيُّ الأمواج،
وأيُّ الأرواح،
وأيّ الأمواتِ، تحبّينْ..؟
أتخافينَ على الوردِ
وقد افرغَهُ الرّعبُ من الموسيقا
أم تفْضَين إلى باهلةِ اللّيلِ
بأنْ تأكل مصباحي..؟
أحلف انّكِ تختلطين عيوناً..
وجنازاتٍ..
وأصابع
أحلف أنّ الجسد الأزرقَ،
في الوطن الغائبِ..
يقفز بعضَ شظايا
في حُمّايَ الكبرى...

**

قافلةٌ.. من غيمٍ ناريٍّ هطلَتْ
فتبسّمتُ لجرحي
أبدأُ منهُ،
نشيدَ الموت الغجريِّ
وأبحث عن شيءٍ لا يشبههُ..
كالبرقِ أراهُ،
وأُقفلُ طيفي
هو لا أعرف كيف يضيءُ الأرضَ،
وكيف يعودُ من المنفى
لا أعرف من أين تجيئينَ،
هو العرسُ.. بأنْ تَزْدَحمَ الرّاياتُ
قريباً من قبري...

**

صمتٌ.. ودقيقةُ موتٍ
في قنبلةِ الحُبّ..
ينتحرُ الشّاعرُ في شَطْحةِ كَشْفٍ
ويظلّ يموت لآخرِ قُبلةِ حزنٍ في دَمِهِ
ولآخرِ رفضٍ في القمرِ المغتالِ
يظلُّ
يموتُ
لآخرِ أرضْ...

* .. * .. *

حلب (سوريا)